فانولا!

ندى عماد

تجولت في أرجاء المعمل أنظف محتوياته، وأضع العقاقير في محلها، آثار ذهولي كل شيء به، فأبي حريص كل الحرص على تزويد معمله بأكثر الأشياء فاعلية على الإطلاق، وقع ناظري على ورقة مطوية تظهر من كتاب كبير، بالتأكيد فضولى دفعني لأرى ما بها كما هو المعتاد والمعروف عني، التقطتها ثم فتحتها برفق فارتجفت يداي خوفا وسقطت على الأرض مرة أخرى، ورقة عادية لكنها مكتوبة بحبر غير عادى؛ بل حبرها الدماء! لملمت شتات شجاعتي المبعثرة وعاودت التقاطتها من جديد وبدأت أقرأ محتوياتها بنبرة أشبه بالهمس، ولكن يغلفها الذعر ففي نهاية المطاف أنا أخاف من معظم الأشياء فما بالكم بهذا الأمر:-

-"لم أكن سوى مجرد فتاة تمردت على الحكم الفظ الذى يحكم مملكتي، ذلك الحكم الذى أوشك أن يودى بحياة الضعيف بينما ينقل القوى الغني نقلة أخرى وكأنما تضعه على ناطحة سحاب، تفرقة عنصرية كبيرة فلم يروق لي الأمر بتاتاً وكان كل ذنبي أنى تمردت، وأطلقت العنان لروحي معبرة عن رأيي

ونابذة كل ما لا يروق لى، أصبحتُ أدافع عن الضعيف والمسكين وأسلب حقه من جوف طبقة الأغنياء التى جعلتهم يشعرون وكأنهم عالة على المملكة بينما هم أهلها الحقيقيون! بات الفقير ينام مطمئن وهادئ البال بعدما كان بالأمس ينام خوفا ويرتعب ذرعا من فكرة قدوم الغد، بالطبع لم أكن لأفصح عن هويتي أمامهم، فلا تستطيع عقولهم إستيعاب أن فتاة هى من تساعدهم وتجعل الجميع ينتابهم الفزع لمجرد ذكر اسمها، انطلق عقلي نحو التنكر واختلاق هوية جديدة أعرف بها، صنعتُ ملابسي وانطلقت في جوف الظلام أحقق هدفي، ولم ألبث كثيرا حتى عرفتُ باسم "فانولا"؛ أطلقوا عليّ اسم رمزيّ أعرف به، وعاماً وراء الآخر حتى كُشفت هويتى وأصبحتُ "فانولا" آلهة الضياء لهذه المملكة!، منذ ظهوري ولم يعد هناك فرق بين الناس ولم يعد هناك طبقات أصبحت المملكة جميعها سواسية، حتى تمت خيانتي وسلب قوتي من قبل لعنة أطلقتها ساحرة عليّ إمتثالا لأمر الحاكم، تم سجني بعدما خارت قوايَ، ونُفيت في قبو أسفل قصر الحاكم لأعذب، روحي ميتة تماماً ليس جراء التعذيب لكن جراء الخيانة، فمن يستطيع فك اللعنة سأعطية قوة لن يضعف بعدها أبدا، أريد التحرر لأموت بسلام، هذه رسالة كتبتها بدمائي وغلفتها بحمايتي حتى تقع في أيد من يستطيع فعلها! "

انتهيت من قراءتها ولا تزال الصدمة هى سيدة الموقف، عاودت النظر مرة أخرى إلى الرسالة فإذا بالكلام قد تبخر تماما ولم يعد هناك سوى حفنة من الدماء، لكن أكثر شيء آثار ذهولى هو كون الدماء لم تجف، وضعت الورقة جانبي ما إن أتى والدى، حاولت أن ألين ملامحى حتى لا يشعر بأى شيء فخرج صوتى قائلا:-

- أبى! هل سمعت عن شيء أو شخص يدعى " فانولا"

آتانى رده:-

- " فانولا" يا ولدى هى أسطورة ويحكى أنها آلهة الضياء، فقد ظهر قديما منذ ما يقارب ال ١٠٠ عام في "مملكة الرمكاء" فتاة استطاع اقتلاع الشر وساوت بين شعبها وأصبحت المملكة من أقوى الممالك حتى عرفت بالمملكة العليا لكن لا أحد يعلم ماذا حدث حتى اختفت فانولا وعادت المملكة أسوأ من السابق لكن الشعب مازال لديهم أمل بها، الملايين منهم يصرخون يوميا باسمها مستنجدين بها

= ولما لم يبحث أحد عنها يا أبي؟

- قوتهم زالت وعادوا كما العبيد، مستضعفين في أرضهم فهى من أعطتهم حياتهم وعادوا كما كانوا بذهابها

خرج صوتى متسائلا بلهفة:-

- وأين تقع مملكة الرمكاء؟

رد عليّ والدى بصوت ضاحك:-

- أرى الحماس أخذك لرؤيتها، الرمكاء تقع على بعد ٧ كيلومتر من الوادى لكنها ليست أرض عادية، فبعد الوادى ستجد هضبة كبيرة هناك توجد الرمكاء لكن المسافة بعيدة عن هنا.

انصرف أبي من أمامى لكن مازلت أتطلع حولي، وأرتب أموري، بالتأكيد لن أوفر وقتا فيجب أن أذهب، اعتلى الفضول قلبي، فأريد رؤية فانولا! والآن قبل لاحقاً! لكن قبل كل شيء تكمن المشكلة في إقناع والدي.

فكرت مرارا وتكرارا في إيجاد حل لأخرج دون أن يشعر بي، فحسمت أمري بإختلاق عذر يمكنني من خلاله الخروج، حملت حقيبتي مستعدا للرحيل، فوقفت بتوتر أمام أبي قائلا:-

- أستأذنك أبي بالخروج لأجلب بعض كتب الدراسة

همهم قليلا لكن سرعان ما سمح لي بالخروج، ملقيا عليّ النصيحة المعتادة ومشددا بعدم التأخير.

كان قلبي يرفرف فرحاً ما إن خرجت من المنزل، بدأت رحلتي لإستكشاف فانولا؛ طوال الطريق وأنا أفكر كيف هي ومن تكون حقيقة، أريد أن أعرف كل شيء خاص بها وكيف هى تلك الأرض؟

وصلتُ أخيرا للهضبة المقصودة بعد وقت ليس بالقليل، تطلعت حولي آملا بإيجاد ما أُخبرت عنه، لكن لا يوجد أى شيء! فقط رمال كثيرة إلى ما لا نهاية تقع خلف الهضبة ولا شيء آخر

أصابتني الدهشة فقلتُ بصوت مسموع لنفسي:-

- أين الرمكاء؟

تجولت حول الهضبة باحثاً ولا تزال الصدمة مسيطرة عليّ، وحين تمكن اليأس منى التفتت لأعود أدراجي مرة أخرى نافضاً تلك الفكرة عن عقلي؛ حتى وصل الأمر أن أقنعت نفسي بأنها مجرد أسطورة، والأساطير خيالية ولا مجال لها في الواقع؟

خاب أملي حقا وتهجم وجههي حتى بات أثر الحزن عليه، دخلت إلى منزلي ملقياً الحقيبة أرضاً على غير عادتي، رفعت عينايَ حينما أدركت أن هناك من يقف إلى جواري فإذا به أبي، وضع يده على كتفي قائلا ببسمة بشوشة:-

- لم تدرك كلمة " أسطورة" التى أخبرتك بها في منتصف حديثي؛ فانولا أسطورة فقط يا بُنى! مجرد أسطورة.

خرج صوتي منفعلا وأنا أشرح مستخدماً حركات يدى:-

- أقسم لك يا أبي أنى رأيت رسالة مكتوبة بدماء؛ قد يكون الأمر حقيقياً!

صمتت ما إن تذكرت رحلتي لأعقب على حديثي:-

- لكني لم أجد أى شيء عند الهضبة

كان صوتي يشوبه الحزن الظاهر في نبراته فلم يشأ أبي وأن يزيد عليّ؛ ليقول وهو ممسك حقيبتي:-

- ما رأيك برحلة سفاري.

رفعت حاجبي مستفهما، فالتفت إلي قائلا بغمزة طفيفة: - أو لنقل رحلة البحث عن فانولا!

تهللت أساريري وبت فرحاً بعدما دق الحزن أبوابي، كان الأمر غير اعتيادياً وخصوصا أن والداى لا يسمح لى بأى من هذا، فلم أشعر بذاتي إلا وأنا أحتضن أبي قائلا بفرحة عارمة:-

- أحبك أبي

وبالفعل كان أبي صادقاً في وعده، فانطلقنا سويا نحو الهضبة من جديد، وصلنا بعد عناء طريق حار

لأقول وأنا أتطلع حولي:-

- لا شيء هنا، لقد أتيت سابقا ولم أجد شيء.

جلس أبي على قدمه وهو ممسك ببعض الرمال قائلا:-

هذا لأنك تبحث عن شيء، وأرض الرمكاء ليست أى شيء

أخرج من الحقيبة حبلا طويلا ليقول وهو يشرع في التسلق لأسفل:- هل تجيد التسلق؟

ساعات وكنا أسفل الهضبة فسيطر بعض الخوف عليّ لكنه تلاشى بوجود أبي إلى جواري، ظللنا واقفين لفترة طويلة لأقول بعد ملل إثر الإنتظار:-

- أين هي الرمكاء؟

أجابني ببسمة:-

- أنت على أعتابها بالفعل!

كنتُ أظن أنه يتلاعب بعقلي لكن ما هي إلا بضع دقائق حتى وجدت نفسي أمام باباً ضخماً على جانبية سورا عظيماً وكأنه أعلى مكاناً في العالم، آثرني شكل حجارته فكأنما مصنوعة من حجارة أشبه بحجر الياقوت؛ كففتُ عن كل هذا لأسأل السؤال المعتاد في مثل هذه الحالة:-

- كيف تحولت الصحراء إلى مدينة عظيمة هكذا

= سأخبرك لاحقاً بكل شيء لكن حتى الآن فأنت لم ترى شيء من العظمة.

تخبطت الأفكار بعقلي من حديثه، إذاً هو كان يعلم أنها حقيقية إذاً لما حاول إقناعي بأنها مجرد أسطورة؟ ورغم كثرة الأسئلة إلا أن منظر المدينة وشكلها الفخم الأنيق كان كافياً بأن يردعني عن كل هذا، كان أمرا عجيباً أن أرى أناس تلك المدينة يرتدون ثياباً غريبة مطأطأين رأسهم لأسفل، والأعجب أنهم لم يلاحظوا أننا غرباء عنهم، وكذلك المدينة شبه مظلمة وخالية من الضوء عدا بعض مصابيح النيران الموضوعة على الحوائط؛ وقبل أن نفعل أى شيء بدلنا ثيابنا لأخرى مثلهم، ساقتنا أقدامنا إلى قصر ذا رونق أخّاذ يأثر القلوب قبل الأعين، استنتجت أنه قصر الملك؛ لا أعلم ما الذى حدث لأبي ما إن دخلنا لتلك المدينة فقد أصبح لا يرد على تساؤلاتي لكن عللت هذا بكونه صامت حتى لا يُكشف أمرنا، ومن سابق إنذار وجدت نفسي أسير في طريق

مظلم على جوانبه أعمدة يترأسها نار؛ وأبي يسير أمامي، وقفنا ما إن وصلنا أخيرا إلى نهاية الطريق لنسير بطريق آخر، وهكذا تبدلت طرقنا بين واحد يضيئه النار وآخر يضيئه مصابيح ذات أشكال غريبة لامعة وكأنها قارورة لكن بداخلها فيما أشبه باللهب؛ وصلنا أخيرا أمام باب كبير الحجم، بديع الصنع، بزخارف منقرشه، فتنهد أبي بثقل قبل أن يفتحه على مصراعيه

دُهلت مما رأيت بل الذهول كلمة بقليلة فلنقل أنها الصدمة العظمى؛ فتاة رائعة الجمال شديدةِ بياض الوجه وشديدةِ سواد الشعر بعينين كحبتا اللؤلؤ واقفة أمامنا لكنها ليست حرة بل مقيدة بإحكام من يديها، رأيتها تنظر ناحية الباب فسرعان ما أُغلق

علمتُ أنها فانولا!

بعد صمت دام لكثير خرج صوتها الناعم أخيرًا:-

- مرحبا بك، انتظرتك كثيرا؛ أنا فانولا آلهة الضياء لم يستطيع أحد قهري لأصبح سجينة مقيدة إثر لعنة حمقاء وفتى صغير بوشم على كف يده؛ أنت من يستطيع إنقاذي؛ سبب اختياري لك هو ذلك الوشم الموجود على يديك؛ ولعلك تساءلت عن الطرقات التي سلكتها ووجود النار بها

تابعت بنبرة أشبه بالغضب:-

- لقد سلبت منهم نورهم وظلوا في ظلام دامس لأعوام حتى استخدموا النار عوضا عن النور، عُذبتِ كثيرا هنا من الليل حتى بزوغ الفجر لأن هذا الوقت التي تزول فيه قوتي لكن سرعان ما أعود أقوى وأقوى لمجرد أن يظهر أول شعاع من الشمس وحين أيقنوا هذا توقفوا عن إيذائي؛ والآن حان وقت الانتقام!

لم يبقى الكثير على الغروب، أسرع وإلا ستزول قوتي ويأتي الحراس، كل ما عليك فعله هو أن تذهب لذلك الكأس هناك وتخلطه بدمائي

خرج صوتي قائلا بدهشة:-

- ماذا؟؟

تابعت:-

سأجرح يدي وكل ما عليك أن تسكب الكأس على الجرح حتى يختلط بدمي

تقدمت نحو الكأس بخطوات بطيئة وفعلت ما أخبرتني به، فإذا بها أصبحت حرة وارتفعت عن سطح الأرض مغمضة العين وشعرها يتطاير حولها؛ فتحت عينها على حين غرة وقد أصبحتا كجمرات اللهب قائلة بغضب جم:-

- حان وقت الإنتقام!

أسرعت بالخروج لأرى ما يحدث فوجدتُ أبي مازال واقفاً، أمسكته من يده لأنبهه فخرجنا سويا نحو الخارج

ظهرت فانولا في السماء بغضبها، فهلل الناس باسمها لكنها مازالت تردد بكلمة واحدة " الإنتقام"

قالت:-

- أرض الرمكاء لم تعتد بما أغدقت به عليها حتى أنها أصبحت الأرض العليا؛ واليوم حق عليها وأن تكون رماد بكبار أناسها دون أناسها المستضعفين.

كان كلامها بمثابة الحُكم العدل للناس، لم أشأ وأن أظل أكثر من ذلك فحاولت أن آخذ أبي ونعود لكن كان كالمغيب تماماً، انتبهت فانولا إلى ما أفعله فافتعلت حركة بإصبعيها السبابة والإبهام فعاد أبي من جديد وكأنه كان في رحلة نوم.

لتقول مفسرة لكن لم أجدها أمامي:-

لقد كان مغيباً عن الواقع بأمر مني؛ وكانت روحي بداخله وهي من جلبتكم

إلى هنا، سأعود بكما حيث جئتما لكن لا تظنا بأن هكذا انتهت رحلتكما مع فانولا بل ابتدأت، كلما أردت شيء ردد باسم فانولا

وتذكرا " فانولا ليست مجرد اسم، ولا مجرد قصة ولا أسطورة بل فانولا واقع تجدها حيث أردتها إن كنت خيّرا"

سمعت صوتها تقول ومازلت لا أراها:-

- والآن انظر خلفك ستجد فانولا!

***